

الرفق

الحمد لله بارئ البريات وعالم الخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمدده سبحانه وأشكره وسع كل شيء رحمة وعلماً، وقهر كل مخلوق عزّة وحكماً، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [110 طه]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة مخلصه أرجو بها الفوز بالجنات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله المؤيد بالمعجزات والبراهين الواضحات، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله السادات وأصحابه ذوي الفضل والمكرّمات، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسموات، وسلّم تسليمًا كثيراً.

أمّا بعد : فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل، فاتقوا الله رحمكم الله، وتوبوا إلى ربكم واستغفروه؛

فلاستغفار ملجأ التوابين ومفزع الخطّائين، ﴿ أَلَا تُحِیُونَ أَن یَغْفِرَ
اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: 22]، أَلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ؟!
احذروا الذنوب، واحذروا مع الذنوب الإصرار كما تحذرون
معها الاستصغار، واحذروا المجاهرة؛ فويل لمن یغتبط بارتكاب
الذنب، ثم ویل لمن یجد الحلاوة بالظفر به، وویل ثم ویل لمن
ینفق المال فی تحصیله، ونعوذ بالله من الخذلان، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَیْثُ لَا یَعْلَمُونَ ﴾ وَأَمْ لِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِّينٌ ﴿ [القلم: 44،
45].

أيتها المسلمون، من أبصر عيوب نفسه سلم من تتبّع مساوی
الناس، ومن ظنّ بمسلم فهو فتنة فهو المفتون، وإذا كان العلم خیر
میراث فإنّ حسن الخلق خیر قرین، وحسن الخلق لا یتّم إحکامه
إلا بضبط قوّة الغضب وقوّة الشهوة.
معاشر الإخوة، والحديث عن حسن الخلق حديث واسع
وموطئ أنیس، ومن العسیر الإحاطة به فی كلمة أو حصره فی
مقام، غیر أنّ ثمة صفة عظيمة جامعة لمكارم الأخلاق ضابطة

لحسن السلوك حاكمةً للتصرفات، صفةً طالما تحدّث الناس عنها، واستحسنتها نفوسهم، وامتدح بها منتدياتهم، ولكنّها السلوكُ الغائب والخلقُ المفقود لدى كثير من الناس غير قليل، بل إنها غائبةٌ عند بعض الناس حتى في أنفسهم، ناهيكم بمن حولهم من الأهل والأقربين.

صفةٌ كريمةٌ وخلقٌ جميل، فيه سلامةُ العرض وراحةُ الجسد واجتلابُ المحامد، خلُقٌ من أشهر ثمارِ حُسن الخلق وأشهاها، ومن أظهر مظاهرِ جميل التعاملات وأبهاها، خلُقٌ يقول فيه نبينا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم: ((مَا كَانَ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)) رواه مسلم، إنه الرفقُ رحمكم الله. فالرفقُ تحكُّمٌ في هوى النفس ورغباتها، وحملٌ لها على الصبرِ والتحمُّلِ والتجمُّلِ، وكفٌّ لها عن العنف والتعجُّلِ، وكظمٌ عظيمٌ لما قد يلقاه من تطاولٍ في قولٍ أو فعلٍ أو تعاملٍ. الرفقُ - حفظكم الله - أخذٌ للأمور بأحسن وجوهها وأيسرِ مسالكها، وهو رأس الحكمة ودليل كمالِ العقل وقوّة الشخصية

والقدرة القادرة على ضبط التصرفات والإرادات واعتدال النظر،
إنه مظهرٌ عجيبٌ من مظاهر الرشد، بل هو ثمرةٌ كبرى من ثمار
التدين الصحيح.

الرفق لين الجانب ولطافة الفعل والأخذ بالأسهل،
فيه سلامة العرض وشفاء الصدر وراحة البدن واستجلاب الفوائد
وجميل العوائد ووسيلة التواصل والتواد وبلوغ المراد.
الرفق يلين سورة عناد المعاندين ويقهر عريكة ذوي الطغيان ،
وفي حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال
رسول الله ﷺ : ((إن الله عز وجل يعطي على الرفق ما لا يعطي
على الخرق -أي: الحمق-، وإذا أحبَّ الله عبدًا أعطاه الرفق، وما
كان أهلُ بيتٍ يُحرمون الرفق إلا حُرِّموا الخيرَ كلُّه))، وفي حديث
عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم: ((إنَّ الله رقيقٌ يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي
على العنف وما لا يعطي على سواه)) رواه مسلم، وعنهما رضي الله

عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((يا عائشة، ارفقي؛ فإن الله إذا أراد بأهل بيتٍ خيراً دلهم على باب الرفق)).
معاشر الإخوة، الرفق هو منهج نبينا وحبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، منحه ذلك ربُّه، وامتنن به عليه: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: 159]، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 215].

فرسول الله ﷺ هو المثل الأعلى والأسوة الأولى في أفعاله وأقواله ومعاملاته رِقَّةً وَحُبًّا وَعَطْفًا وَرِفْقًا، يقول أنس رضي الله عنه: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفاً قط، ولا قال لشيءٍ: لِمَ فعلتَ كذا؟ وهلا فعلتَ كذا؟ متفق عليه . وعنه رضي الله عنه قال : كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجذبهُ جذبَةً شديدة حتى نظرتُ إلى صَفْحَةِ عاتقِ رسولِ الله ﷺ وقد أثرت بها حاشيةُ البرد من شدة

جذبتيه، ثم قال : يا محمد، مُر لي من مالِ الله الذي عندك،
فالتفت رسولُ الله ﷺ وضحك، وأمر له بعتاء . أخرجه البخاري.
أيها المسلمون، الرفقُ سلوكٌ كريم في القول والعملِ وتوسّطُ
في المواقف ، واعتدالٌ وتوافق ، واختيارٌ للأسهل والألطف . ليس
للرفقِ حدودٌ تقيده ولا مجالٌ يحصره، بل هو مطلوبٌ في كلِّ
الشؤون والأحوال وفي الحياة كلّها وفي شأنِ المسلم كلّه. يأتي في
مقدمة ذلك المطلوباتُ الشرعية؛ فريتنا - عزّ شأنه- رفيقٌ بخلقه
رؤوفٌ بعباده كريمٌ في عفوه رفيقٌ في أمره ونهيّه، لا يأخذ عباده
بالتكاليف الشاقّة، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: 16]،
﴿ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: 286]، ﴿ لَا يَكْلَفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:
7]، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة:
185]، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:
78].

وتأتي الصلاة وهي عمود الإسلام وأمّ التكاليف خفف فيها نبينا محمد ﷺ من أجل بكاء الصبي خشية أن تفتن أمه . متفق عليه . وقال عليه الصلاة والسلام : ((إذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةَ)) رواه مسلم . وقال : ((لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ))، وفي عبادتكم كلّها: ((سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَخُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تَطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا)).

ومن أعظم صور الرفق : الرفق بالأهل والأسرة من الآباء والأمهات والأطفال والزوجات . يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: "شدة الوطأة على النساء مذموم؛ لأن النبي ﷺ أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم وترك سيرة قومه".

أيها الأبناء، ارفقوا بآبائكم وأمهاتكم، أحسنوا الصحبة، ولينوا في المعاملة، ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

أَيُّهَا الْآبَاءُ، أَيُّهَا الْأُمَّهَاتُ، اِرْفَقُوا بِأَبْنَائِكُمْ وَبِنَاتِكُمْ؛ فَرِيكُم
يُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ
خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ.

تَرْفَقُوا بِالْخُدَمِ وَالْعَمَالِ، وَلَا تَكَلِّفُوهُمْ مَا لَا يَطِيقُونَ، وَأَحْسِنُوا
مَخَاطَبَتَهُمْ، وَأَعْطُوهُمْ أَجْرَهُمْ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُكُمْ فِي مَوَاعِيدِهَا وَإِذَا
طَلَبُوهَا، وَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَطْعَمُونَ . جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ! كَمْ أَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ ؟ فَصَمَّتْ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،
ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! كَمْ أَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ ، فَقَالَ ﷺ : كُلَّ
يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً

أَيُّهَا الْمَعْلَمُونَ، أَيُّهَا الدَّعَاةُ، أَيُّهَا الْمَسْئُولُونَ، اِرْفَقُوا وَتَرْفَقُوا؛
فَالرَّفْقُ وَالْإِحْسَانُ أَسْرَعُ قَبُولًا وَأَعْظَمُ أَثَرًا، فَهَذَا هُوَ الْمَعْلَمُ الْأَوَّلُ
وَسَيِّدُ الدَّعَاةِ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ بَالَ الْأَعْرَابِيُّ فِي الْمَسْجِدِ
وَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ الرَّفِيقُ ﷺ : ((لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ،
وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنْوِيًّا مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ
مَيْسَرِينَ، وَلَمْ تَبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ)) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ . وَعَطَسَ رَجُلٌ فِي

الصلاة، فقال له الحكم بن معاوية السلمي : رحمك الله، قال :
فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ : وَاشْكَلَ أَمَّاهُ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ
إِلَيَّ؟! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ
يُصَمَّتُونَ بِي، سَكَتَ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَابِي هُوَ وَأُمِّي مَا
رَأَيْتُ مَعْلَمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا نَهَرَنِي وَلَا
ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا
شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))
أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وفي عموم الولايات والمسؤوليات يقول عليه الصلاة
والسلام: ((اللَّهُمَّ مَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرَّقَ بِهِمْ فَارْزُقْ بِهِ،
وَمَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ)) رواه مسلم.
يكون المسلم - عباد الله - على قدر عالٍ من الأخلاق
الحسنة والتعامل الرفيق والمسلك الراقى حين يكون متسامحاً،
وحيث يتجنب المشاحة وغلظ المشاكسة، يمهل المعسر ويتجاوز

عن المسيء، ((رَجِمَ اللهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا قَضَى، وَإِذَا اقْتَضَى)) رواه البخاري.

((إِنْ خِيَارَكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا)). كيف وقد بلغ التوجيه إلى الرفق في ديننا حتى نال الحيوانُ الأعجمُ البهيم حظه من الرفق، ففي الحديث : ((اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُّوهَا صَالِحَةً)) رواه أبو داود.

ألم تعلموا-رحمكم الله- أن النارَ وسوء العاقبة كانت لامرأةٍ حبست هرةً حتى ماتت، لا هي أطعمتها، ولا هي سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاشِ الأَرْضِ، وَجَنَّةِ عَدْنٍ كُوفِنَتْ بِهَا بَغِيٌّ سَقَّتْ كَلْبًا كَانَ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ.

هل علمتم-حفظكم الله- أن التحريش بين البهائم منهجيٌّ عنه في ديننا؛ لأنه إيذاء وقسوة وعبث وعُنف، بل حتى عند قتله أو ذبحه أنتم مأمورون بأن : ((إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُرِخَ ذَبِيحَتَهُ)).

وبعد: عبادَ الله، فما أحسنَ الإيمانَ يزيئُه العلم ! وما أحسنَ العلمَ يزيئُه العمل ! وما أحسنَ العملَ يزيئُه الرفق ! وما أضيفَ شيء إلى شيءٍ مثلِ حلمٍ إلى عِلْمٍ، ومن حَلُمَ ساد، ومن تفهَّم وتأنَّ ازداد، ومن زرعَ شجرةَ الرفقِ حصَدَ ثمرةَ السلامة. وفي الحديث: **((ألا أخبركم بمن يحرم على النار ومن تحرم عليه النار؟ على كلِّ قريبٍ هينٍ سهلٍ))** حديث حسن أخرجه الترمذي وقال: "غريب".
والصبرُ - عبادَ الله - بالتصبر، والحلمُ بالتحلُّم، والعلمُ بالتعلُّم، والرفقُ بالترفق، وحُسنُ الخلقِ كلُّهُ بالتخلُّق، ومن يتوخَّ الخيرَ يُعطه، ومن يتوقَّ الشرَّ يوقه، وأوَّلُ المودَّةِ طلاقَةُ الوجه،
والثانيةُ الرفقُ والتودد، والثالثةُ قضاءُ حوائجِ الناس.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّ الدِّينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 199-201].

بارك الله لي ولكم ... نفعني الله وإياكم بالقرآن العظمي م،
وبهدي محمد ﷺ .

وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين
من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله هادي من استهداه ومجيب من دعاه، أحمده
سبحانه وأشكره على جزييل ما أفضل وكريم ما أعطاه، وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره ولا رب لنا سواه، وأشهد
أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله ومصطفاه ومجتباها، صلى
الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه ممن هاجر معه ونصره
وآواه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثره واتبع هداها، وسلّم
تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا لا حدًا لمنتهاها.

أما بعد : أيها المسلمون، الفظ الغليظ العنيف يشقُّ على
الناس صحبته وتثقل على ذوي المروءات معاشرته، ينفر منه

الآخرون ولو كثرت فضائله ورُجيت فواضله، بل لعلهم لا يباليون ما يفوتهم من منافعه؛ ذلكم أن ((مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ فَهُوَ المحْرُومُ)) كما صحَّ في الحديث . ناهيكم بقاصر المعرفة ومحدود الإدراك الذي يظنُّ الرفق ذلَّةً والرحمة ضعفاً والأناة كسلاً والمداراة نفاقاً واللطف غفلةً، بل ربما ظنَّ الفظاظة رجولة وحزماً والتشدد تمسكاً والتزاماً، وهل هذا إلا انقلاب في المفاهيم وغلظ في الفهم وغلط في الإدراك!؟

وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه وقد سمع من رجل كلاماً قاسياً: (يا هذا، لا تغرق في سبنا، ودع للصالح موضعاً؛ فإننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه)، وشم رجل الشعبي رحمه الله، فقال الشعبي: "إن كنتُ كما قلتَ فغفر الله لي، وإن لم أكنُ كما قلتَ فغفر الله لك".

نعم حفظكم الله، الرفق يحمِل على الاحتمالِ وكظم الغيظِ وكف الأذى ، والأناة وعدم الطيش، كم فات من سبيل النجاح والفلاح على أهل العنف والطيش والعجلة ! يقول عمر بن عبد

العزير رضي الله عنه : " إِنَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ الْعَفْوُ عِنْدَ
المقدرة، وتسكين الغضب عند الحدّة، والرفق بعباد الله، وما رفقَ
عبدٌ بعبدٍ في الدنيا إلا رفقَ الله به يومَ القيامة".
ألا فاتقوا الله رحمكم الله، واعلموا أنّ الرفق لا يُنافي الحزم،
فيكون المرء رقيقاً في أموره متأنياً، لا يُفوّت الفرص إذا سنحت،
ولا يهملها إذا عرّضت، والمحمودُ وسط بين العُنف واللين، ولكن
لما كانت الطباعُ إلى العنف والحدّة أميل كانت الحاجةُ إلى
ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، وشرفُ النفس أن تحمِل المكاره
كما تحمِل المكارم، وفي الإعراض صونٌ للأعراض، والكريمُ يلين
إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا ألطف.
هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المهداة والتّعمة المسداة
نبيِّكم محمد رسول الله...

موقع الشيخ نبيل الرفاعي

<http://www.nrefaei.com>